

1997

## Image of Jabra Ibrahim Jabra through His Autobiography in (Princesses Street) Study on Vision and Formation

Ibrahim Al-Fayoumi

Yarmouk University, Jordan, IbrahimFayoumi@yahoo.com

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jpu>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#), and the [Arabic Studies Commons](#)

### Recommended Citation

Al-Fayoumi, Ibrahim (1997) "Image of Jabra Ibrahim Jabra through His Autobiography in (Princesses Street) Study on Vision and Formation," *Jerash for Research and Studies Journal* مجلة جرش للبحوث والدراسات: Vol. 1 : Iss. 2 , Article 1.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/jpu/vol1/iss2/1>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Jerash for Research and Studies Journal مجلة جرش للبحوث والدراسات by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

بسم الله الرحمن الرحيم

## صورة

# جبرا إبراهيم جبرا

من خلال سيرته الذاتية في

## ( شارع الأميرات )

دراسة في الرؤية والتشكيل

د . إبراهيم الفيومي

جامعة اليرموك اربد - الأردن



## ( ملخص )

سجل جبرا إبراهيم جبرا سيرته الذاتية في كتابين صدر الأول سنة ١٩٨٦ تحت عنوان « البئر الأولى » وتحدث فيه عن فترة طفولته ثم أصدر كتابه الثاني « شارع الأميرات » سنة ١٩٩٤ ، تناول فيه فترة النضج من حياته . وتطمح هذه الدراسة الى تتبع صورة جبرا من خلال سيرته الذاتية في « شارع الأميرات » التي تلقي الضوء على كثير من أعماله الإبداعية ، كما تعكس رؤيته الفنية . وقد استخدم الشكل المفتوح الذي احتوى العديد من الأنواع الأدبية كالمقالة والقصيدة والحكاية وغيرها ، وصبها جميعاً في بوتقة السيرة الذاتية التي سنخضعها للتحليل الفني .

## ABSTRACT

The portrait of Jabra Ibrahim Jabra  
out of his Autobiography In (Shari al- Amirat ).  
A study on Vision and Forming

Ibrahim Fayoumi  
Yarmouk University

Jabra recorded his autobiography in two of his works , the first of which is (Al Bi'r al-ula ) (published in1986 and was confined to his childhood The second is Shari al - Amirat in which Jabra concentrated on his maturity especially his fifties due to its importance.

This study aims at investigating the portrait of Jabra out of his autobiography in Shari al- Amirat and its relation to his novelistic creation. In addition the study sheds some light on the open - form utilized by the writer in recording his autobiography.

## مدخل

يرى جبرا أن السير الذاتية في أدبنا المعاصر تكاد لا توجد ، ويصف الإقدام على كتابة السيرة بأنه مغامرة إذ يقول : « جازف اثنان أو ثلاثة أو أربعة فكتبوا سير حياتهم كما فعل د . طه حسين في كتابه الجميل « الأيام » وأحمد أمين في كتابه « حياتي » أو سلامة موسى في « تربية سلامة موسى » . وربما كانت تجربة ميخائيل نعيمة أكبر هذه التجارب في السيرة الذاتية عندما كتب « سبعون » (١) .

وقد أعلن جبرا رأيه هذا قبل أن يكتب سيرته الذاتية « البئر الأولى » التي بسط في المقدمة الأسباب التي دفعته الى كتابة تلك السيرة ، وغايتها رصد تجربة التغير والنمو والصراع التي تجعل للحياة معنى ومذاقاً .

لقد كانت الرغبة كامنة في أعماقه في انتظار محرك داخلي أو خارجي ، إلا أن الجهد المضني الذي سيبدل في إنجازها جعله يقدم رجلاً ويؤخر أخرى وتعود بالذاكرة الى عام ١٩٤٥ حين التقى بصديقة [ إنجليزية اسمها ( هايدي لويدي ) زرعت بذرة كتابة سيرته الذاتية ، وما لبثت أن نبتت وأينعت ثم أثمرت عام ١٩٨٦ يوم صدور الطبعة الأولى من « البئر الأولى » .

ولما كانت التغطية الكاملة لسنوات العمر أمراً صعب التحقيق ، صار الانتقاء ضرورة ملحة : « وجدت أن علي أن اختصر كثيراً وأحذف كثيراً ، وأهمل الكثير ، وإلا فإنني لن أنتهي (٢) » .

أما فكرة « شارع الأميرات » فقد جاءت بتحفيز من صديق يعمل في الصحافة اقترح عليه أن يكتب له عدداً من المقالات عن سيرته الذاتية . ومن جديد كان لا بد من الانتقاء ، فوضع قائمة من الأحداث الشخصية التي رأى فيها تجارب دالة يمكن وصل بعضها ببعض لتكون في النهاية نوعاً من السيرة .

ويعلن جبرا في المقدمة نفسها أنه سيركز على مطلع الخمسينات ؛ لأنها حقبة من أغنى حقب المجتمع العربي المعاصر ، كما أن حياته الخاصة شهدت فيها تحولات جذرية (٣) إن ما أعلنه جبرا في مقدمة سيرته سيلقي الضوء الكاشف على شخصيته وإبداعه ، وعلى وجه الخصوص استراتيجيات الشكل الفني .

وستحاول هذه الدراسة أن تتبّع صورة جبرا في « شارع الأميرات » من خلال اعترافاته وسلسلة علاقاته المتشابكة مع عدد هائل من الشخصيات عبر الزمان والمكان، نونما إغفال لسيرته الذاتية في « البئر الأولى » التي لم تتناولها تفصيلا لأن الدارسين تناولوها بشيء من التفصيل، وأخص بالذكر هنا دراسة د. خليل الشيخ الموسومة « سيرة جبرا إبراهيم جبرا وتجلياتها في أعماله الروائية والقصصية (٤) ».

وسنلقي الضوء على التشكيل الفني في « شارع الأميرات » الذي استوعب العديد من الصيغ والأجناس الأدبية .

في شهر آب من عام ١٩٢٠ ، ولد جبرا إبراهيم جبرا في حي من أحياء مدينة بيت لحم يدعى ( الخان ) لأسرة تعيش تحت خط الفقر .وقد عشق الحرف المكتوب منذ نعومة أظفاره، فأقبل على الدراسة بنهم، كما أحب الرسم والموسيقى والمسرح واستطاع بعد كفاح مرير أن يجتاز العقبات وينهي تحصيله العلمي في الكلية العربية بالقدس ويكون بين المتفوقين ،فيرسل في بعثة الى إنجلترا عام ١٩٣٩ ، ويعود بعد أربع سنوات ليعمل في حقل التعليم بالقدس .

وتضطره ظروف نكبة عام ١٩٤٨ الى السفر حيث يمّم شطر بغداد ، وعمل مدرسا في كلية المعلمين العليا ، واستقر هناك حتى وفاته عام ١٩٩٥ .

وجبرا شخصية فريدة : فهو مدمن على القراءة . وله ذاكرة قوية حادة تعي ما تقرأ وقد أفاد من تخصصه في اللغة الإنجليزية فقرأ كما هائلا من الكتب ، وبدأ التأليف في مرحلة مبكرة موزعا على فنون شتى كالرواية والقصة القصيرة والمقالة النقدية والترجمة إضافة إلى تعاطيه الرسم والموسيقى .

ونحن نورد هذه الترجمة الموجزة لحياة جبرا ؛ لأنها تتصل اتصالا وثيقا « بشارع الأميرات » الذي ختم به حياة حافلة بالعطاء ، وجاء امتداداً طبيعياً لسيرته الذاتية في « البئر الأولى » التي احتفل بها النقاد احتفالا أثار دهشته وحفزه إلى مواصلة المسيرة في الميدان نفسه . وإذا كانت « البئر الأولى » قد سجلت فترة الطفولة البريئة المعذبة التي ترسخت في أعماق الكاتب، وظل يمتح منها ، فإن « شارع الأميرات » ركزت الضوء على فترة النضج وتحقق الكثير من الأمنيات العذبة وإن لم تخل من إحباطات وانتكاسات .



ومن يتأمل فصول « شارع الأميرات » الستة ، يلاحظ أنها بدأت عام ١٩٣٩ من ميناء بور سعيد الممر ، وانتهت الى بغداد المقر ، وحملت مضامين متنوعة تتجاوز السطوح الخارجية لتتغلغل في الأعماق . ها هو يقف في مدينة بور سعيد أمام تمثال « فرديناند بولاسبس » ويسترجع التاريخ التراجيدي لحفر قناة السويس التي وهبت مصر حياة جديدة مقابل ثمن فادح دفع جبرا الى أن يسأل : هذه المنجزات الهائلة التي ستسميها أجيال البشرية بعجائب الدنيا، هل لا بد لها من مثل ذلك الظلم وتلك القسوة لتحقيقها؟ (٥) وتعليق جبرا يحمل بعدا إنسانيا إذ يأسى لآلاف العمال الذين كانوا يعملون بالسخرة وقضى الكثير منهم تحت شواظ الشمس المحرقة أو سياط الحراس الغلاظ ويصل الى مدينة « اكستر » فتشده طبيعتها الجميلة ، ويأسره تاريخها العريق ، وكاتدرائيتها القديمة . ويسجل في الفصل الثاني إعجابه الشديد بشكسبير ومسرحياته الرائعة ، فيشد عصا الترحال الى مسقط رأس الشاعر العظيم، ويسعفه الحظ فيشاهد سلسلة من مسرحياته التي كانت تعرض تباعا ، ولم يتغيب عن واحدة ، كما كان يمهّد لكل عرض بقراءة المسرحية التي ستمثل : « كنت كل صباح أقرأ نص المسرحية التي سأشاهدها في ذلك المساء ، وكانت آخرها وتتويجا لها مأساة « هاملت » (٦) .

وفي الفصل الثالث ينقلنا جبرا الى أجواء رومانسية حاملة مع « سيدة البحيرات » تلك المرأة التي لقيها عند سفح الجبل الشامخ، وتبادل معها حديثا عن المسيح والقدس وأشياء أخرى ثم افترقا، ولما حاول العثور عليها كانت قد اختفت . ويمضي بنا إلى شاعرين من أعلام الرومانسية هما « شلي وجون كيتس » حيث الخيال المجنح والعاطفة المتأججة . وربما يرد إعجابه بهذين الشاعرين إلى أنه رأى فيهما صورة قريبة من آلامه وطفولته المعذبة (٧) . ويمثل الفصل الرابع بداية التحول في حياة جبرا يوم وصل بغداد أواخر أيلول عام ١٩٤٨ ، بعد أن كانت تلك العاصمة هي الملاذ الأخير، فتوجه إليها مرغماً (٨) ، وعمل في المعاهد العليا . وشيئاً فشيئاً ألف المكان وبدأ بالانفتاح على الشخصيات العراقية وغير العراقية، كما توقف أمام تاريخ العراق العريق، وما تبقى من تلك الحضارة الغاربة: يوم زرت (نمرود) للمرة الثالثة في صيف ١٩٨٦ ، وفي عز شمس آب اللهب، أصبت وزملائي بالنشوة القديمة نفسها لرؤية بقايا المنحوتات المذهلة (٩) .

وبين تلك الأطلال يتعرف إلى السيدة « مالوان » التي يدهش عندما يعرف أنها هي الكاتبة المشهورة « أجاثا كريستي » .

ويخص « شارع الأميرات » بفصل كامل هو الخامس ، حيث استقر في بيته الذي بناه عام ١٩٦٢ ، ونشأت بينه وبين الشارع حالة عشق إذ يقول : ( قامت علاقة حب عميق بيني وبين « شارع الأميرات » في حي المنصور ما زلت أتمتع بنبضها وإحياءاتها (١٠) ذلك ان المكان شهد ميلاد رواية « الغرف الأخرى » وسيرته الذاتية « البئر الأولى » وغيرهما من أعماله الإبداعية .

أما الفصل السادس الذي يقع في اثني عشر مقطعا ، فكان بمثابة واسطة العقد إذ عرض فيه أحب إنسان إلى قلبه .. زوجته « لميعة » وأيامه معها ، إضافة لعدد هائل من الشخصيات التي كانت تدور في فلكه . ويختم سيرته الذاتية بالتركيز على عامي ١٩٥١ ، ١٩٥٢ اللذين خصهما دون سواهما لما فيهما من مدهش وعجيب .

وإذا ما ألقينا نظرة شمولية على سيرة جبرا في « شارع الأميرات » ، فإننا نلاحظ أن « الأنا » تأخذ أشكالا عدة وفقا للظروف المحيطة التي كانت تفرض عليه أحيانا أن يأخذ صفة المراقب الحذر ، بينما نرى تلك « الأنا » في مواقف أخرى تتخبط في قلب الحدث وتكون مؤثرة فيه .

ويمثل البعد السياسي في سيرته خيطا واهيا إذ كلما عرض لموقف سياسي اجتازه مسرعا ؛ لأنه يعتقد أن التجربة الروحية يمكن أن تكون بديلا للتجربة السياسية كما أن وضعه الخاص في بغداد كفلسطيني كان يحتم عليه أن يظل بعيداً عن التيارات السياسية (١١) .

وعندما تقوم الحرب العالمية الثانية ينظر إليها نظرة ذاتية صرفة ، إذ يخشى أن يكون مستقبله ضحية تلك الحرب فكان يتابع أخبارها خوفا على مستقبله : « يوم أعلنت الحرب كنت مع « علي كمال » في القدس تنسقط الأخبار من المذيع ، فتصورت اندلاعها في كل مكان في أوروبا في أسبوعين ، وأيقنت أن فرصتي للسفر إلى إنجلترا في بعثة دراسية قد ضاعت دفعة واحدة » (١٢) .

وما أن يذكر حرب الخليج حتى يعرض لها بشكل خاطف قائلا : ..... ومن فوقنا



الذبابات اللعينة القادمة من أقاليم الكراهية والموت تنبذ القتل والوحشية وتطالب بدمائنا(١٣).

وتعلو نبرته بعض الشيء عندما يعرض لمأساة الفلسطينيين : نحن الفلسطينيون مثل الأسلاب التي يتقاذفها الموج .. نحن الفلسطينيون الآن مثلها ، تتقاذفنا أمواج العالم، تقارب بيننا حتى نتعانق ثم تفرق بيننا بعنفها، فنتطاير في ألف اتجاه، ولا نعلم إن كانت ستعود يوماً وتجمعنا - ولو بعنفها - مرة أخرى (١٤) .

وتعود به الذاكرة أبداً الى قضية شعبه الفاجعة التي لا يكاد يخلو منها كتاب من مؤلفاته .... يقول في إحدى لقاءاته الصحفية : أنا أحمل فلسطين في دمي. لقد أصبحت فلسطين بعد النكبة أكثر من موقع جغرافي. لقد أصبحت فكرة جامعة تجتاح أمة بكاملها . وهذا أمر أعيشه كل يوم ( ١٥ ) .

وعندما تتراعى إلى سمعه أنباء ثورة يوليو المصرية عام ١٩٥٢ يعلق فرحاً : أدهشتنا وأفرحتنا بأنها تمت دون إراقة قطرة دم واحدة (١٦) ، وتعليقه يشير إلى نبذه للعنف وسفك الدماء.

وتكتشف السيرة - في بعدها الاجتماعي - عن بؤس الحياة في بعض البلدان العربية، نحو تصويره لمقهى شعبي في مدينة « بور سعيد » : دخلنا إلى قاعة عريضة كثيرة الدخان وملأى بمناضد جلس إليها الرجال من كل نوع وعمر، معظمهم بادي التعب أو الملل (١٧) ، وفي بغداد يصف الهوة السحيقة بين طبقتين : أولاهما متخمة والثانية معدمة تجلت بين طلاب وطالبات كلية المعلمين : معظم الطلاب الذكور يلبسون ثياباً عتيقة قد لا يبدلونها طيلة أيام السنة (١٨) .

وهذه الصورة تجسد الفقر المدقع الذي يعيش فيه هؤلاء الطلاب بينما الصورة الأخرى تمثلها الطالبات الأرستقراطيات: إن الطالبات ينتمين في الغالب إلى عائلات مرفهة ، ويبدو ذلك جلياً من ملابسهن وتصرفاتهن وثقتهن بأنفسهن إزاء زملائهن من الذكور - الأفقر حالاً - والذين لم تفارقهم بعد سيماء العيش البدائي الذي ينتمون أصلاً إليه (١٩) . وفي مواجهة هذه الطبقة ومظاهر التخلف ، يعرض الكاتب الصورة النقيضة متمثلة في الحياة في إنجلترا خلال الحرب ، لا سرقة ولا نهب ولا احتكار بل إن الحياة الفكرية والثقافية تستمر وتزدهر : ازداد النشاط على كل صعيد، في الدراسة ، كما في العمل كما

في الفنون (٢٠).

وتكشف السيرة - في بعدها الثقافي والفكري - إقبالاً محموماً على النوات والمحاضرات - وجبرا في الطليعة الموجهة - التي كانت تعقد في بغداد ، إضافة الى بعض المعارض الفنية . وسجلت فترة الخمسينات حماساً منقطع النظير للوجودية، وتوجهاً نحو التجديد في كل اتجاه : أي فوران ثقافي كان يتصاعد في المدينة يومئذ، فوران تختلط فيه الأوراق ، وتتخذ فيه الحماسات مسارات سياسية واجتماعية مثيرة ودائبة الحركة (٢١).

ولم يقف الفوران الثقافي والتحول الفكري عند حدود بغداد ، بل تعداه الى عواصم عربية أخرى كبيروت والقاهرة .

ويكشف جبرا عن « أناه الموزعة » على أعماله الأبداعية بأقدار متفاوتة ، وإن البوح يهبه راحة نفسية إذ يقول : إنني دائماً موجود في ثنايا المتاهات التي أبتدعها في كتاباتي ، ولست أجد عن ذلك ندحة فالكتابة عندي ضرب من الاعتراف الذي يريح النفس من بعض ما يثقلها (٢٢) .

ومعلوم أن أحداث السيرة الذاتية تختلف بصورة شبه كلية عن أحداث الرواية، إذ أن الأولى تعرض ما وقع بالفعل ، بينما الثانية تحكي ما وقع أو ما يحتمل وقوعه ، كما أن أحداث السيرة الذاتية تحكم صاحبها إذا هو توخى الصدق والأمانة والموضوعية ، في حين يخلق الروائي عالمه كيف يشاء دونما خروج على قوانين الفن الأساسية . وهكذا تناولت سيرة جبرا الذاتية موضوعات يتصل بعضها بالأنما بصورة مباشرة ، وأخرى عربية أسهم فيها بقدر ، وثالثة إنسانية عرض فيها وجهة نظره فحسب ، وكلها تلتقي عند التوجه نحو المستقبل والبحث عن الجديد . من الأمور اللافتة التي تتصل بأهم الأحداث في « شارع الأميرات » ، ذلك التركيز الشديد على كل عجيب ومدهش، حتى أن لفظتي « مدهش » و « مذهل » تردان منذ السطور الأولى وحتى آخر السيرة كما جعل عنوان الفصل السادس « لميعة والسنة العجائبية (٢٣) » . وإذا ما تتبعنا الأحداث في سياقها الزمني فإننا نلاحظ أن أخطر حدث واجه جبرا عام ١٩٣٩ قيام الحرب العالمية الثانية وارتباطها الوثيق بمستقبله ومصيره وقد تجلى الحزم في شخصية الكاتب عندما صمم على السفر إلى إنجلترا

رغم معارضة أمه خوفاً عليه من المخاطر: « لم أكن خائفاً وأصررت على السفر وقلت في ويلات هذه الحرب المحتملة ستكون حالي حال مئات الملايين من الناس . أنا لست أفضل منهم (٢٤) . والذات هنا تبدو محبة للمغامرة ، تعشق ارتياد المجهول إذ كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر في بحر يعج بالفواصات الألمانية التي كانت تصطاد سفن وبوارج الحلفاء ولكن الله سلم ووصل الفتى الى جامعته .

وإلى جانب هذه الحرب الكبرى أشارت السيرة إلى حربين أخريين هما:

حرب الخليج وحرب عام ١٩٤٨ التي اكتوى الكاتب وشعبه بنارها وكانت سبباً في تشرده بعيداً عن الوطن الأم ، وسجل صوراً لا تنسى كحادث تفجير فندق « سميراميس » (هكذا) من قبل اليهود، وكان الفندق قريباً من حي « القطمون » الذي يسكنه جبرا آنذاك: كانت دهشتي العظيمة في تلك اللحظة لرؤيتي بعيني مشهداً وصفته يوماً كما رأيته بعيني الخيال قبل ذلك بحوالي سنتين في روايتي القصيرة « صراخ في ليل طويل » (٢٥) . يكاد المشهد نفسه يتكرر في رواية « صيادون في شارع ضيق » عندما يفجر اليهود عدداً من المنازل ، كان أحدها منزل « ليلي شاهين » خطيبة « جميل فران » الشخصية المحورية في الرواية . وتظل يد ليلي المقطوعة وخاتم الخطوبة في بنصرها ذكرى أليمة تلاحقه في الحلم واليقظة حتى الصفحات الأخيرة من الرواية (٢٦) . وهذا يشير بوضوح إلى موقع البعد الفلسطيني من سيرة جبرا الذاتية وإبداعه بكافة أشكاله ، كما أن نبوعه في الرواية بما سيحدث في الواقع أمر يثير الدهشة حقاً ! .

ومن خلال الأحداث التي أثارت دهشة جبرا واستهجانه في رحلته الأولى إلى إنجلترا ، صفحة سوداء قاتمة من تاريخ حفر قناة السويس ، إذ بنى الخديوي إسماعيل اثنين وأربعين قصراً لإقامة ضيوفه، بينما كان معظم الشعب المصري في مسغبة، وهنا يتساءل جبرا: لماذا تمر بعض الجرائم الكبرى دون أن ينال مرتكبوها العقاب؟ (السيرة ص ٢٢٠).

ومن الأحداث الطريفة التي تستوقفه من حياة « فرديناند دو لاسبس » زواجه وهو في الرابعة والستين من عمره من فتاة الواحد والعشرين ! وقد أنجب منه أحد عشر ولداً بالتام والكمال (السيرة - ص ١٧) .

ومن الأحداث الهامة التي احتفل بها أثناء فترة دراسته في إنجلترا زيارته للمدينة التي

ولد فيها شكسبير ، والتي يصفها في خشوع قائلاً : طفت كمن يطوف في مكان مقدس في الأماكن العديدة الأخرى المتصلة بشاعر الإنجليز الأكبر (٢٧).  
أما أخطر أحداث السيرة ، فيتمثل في لقائه « بلمية » التي أحبها حباً جارفاً وأحبته رغم العقبات التي اعترضت طريقهما ، وأكبرها أنه مسيحي وهي مسلمة . ويطلق على تلك السنة ( ١٩٥١ ) السنة العجائبية: « تلك السنة التي جاءت مذهلة في وسط إجتماعي كثير الفوارق ، بثرائها الفكري ، وسخائها العاطفي ، تلك السنة كانت في حياتي وعن حق السنة العجائبية ، وقد بلغت فيها من العمر الحادية والثلاثين والتقيت بالمرأة الأروع في حياتي » (٢٨).

واجتاز عقبة اختلاف الدين بإعلان إسلامه قبل المضي في مراسم الزواج البسيطة المتواضعة : « حالما رأي القاضي عبد الحميد الأتروشي رجب بي ، فقد كنت أسلمت على يديه قبل أيام » (٢٩).

ومن سياق الأحداث والحوار نستشف أن والدة « لمية » لم تكن موافقة على الزواج تماماً ، إلا في الأخير كما يذكر جبرا : « عندما نهضنا أخيراً للخروج ، رأيت « لمية » تذهب إلى والدتها وتعانقها وتقول لها : ماما ، باركي لي الآن ، لن أتحرك حتى تباركي لي ، فقبلتها بحرارة وقالت : مبروك حبيبتي » ( ٣٠ ) .

ويعكس إقدام جبرا على الزواج شخصية مغامرة جريئة ، إذ استدعاه الدكتور عبدالعزيز الدوري عميد المعهد وأبلغه بقرار مجلس التعليم عدم تجديد عقده ( السيرة ص ٢٠٨ ) ، ولكنه استطاع أن يجتاز العقبة بعزمه ، ومؤازرة قوية من زوجته « لمية » . ومن التحديات الأخرى التي واجهته أثناء وجوده في أمريكا ، استدعاء زوجته للخدمة في بغداد ومن جديد استطاع ان يواجه ذلك الموقف الصعب .

وهناك أحداث دون ما ذكرنا أهمية ، تمثلت في زيارته بعض المدن الأثرية داخل العراق ، ثم رحلاته إلى باريس وغيرها من العواصم والمدن ، أثرت مخزونه وزودته بالخبرة ، وأتاح له أن يرى ما كان يقرأ عنه ، ولم يكن يتصور أن يحظى بمثل تلك المشاهدات المدهشة : « يوم ذهبت إلي حدائق التويلري ، لزيارة متحف « الاورانجري » حيث تحفظ لوحات الانطباعيين وما بعد الانطباعيين ، أي فرح عارم هزني حتى النخاع ! وكما هو شائي كلما



فاجأني الجمال ، شهقت وفاضت عينايا، وأنا أحاول يائساً كبج الدموع ، لئلا يراني الزوار ويعجبون لبكائي» (٣١) .

إن هذه الأحداث ، في مجموعها تكشف عن ذات شفافة، وروح عاشقة للجمال في دنيا الطبيعة ، كما في عالم الألوان والفنون التشكيلية إضافة إلى الكلمة المكتوبة .

ومجمل القول ، فإن أحداث السيرة ركزت على المدهش العجيب ، ورسمت لنا خطأ بيانياً صاعداً تمثل في مواجهة سلسلة من العقبات الصعبة التي اعترضت طريقه، فواجهها وتغلب عليها، كما حقق العديد من الإنجازات الرائعة تأليفاً وترجمة بلغت به قمة سامقة، فأصبح شخصية مرموقة ، وانتشرت مؤلفاته شرقاً وغرباً، وحظي بعدد من الجوائز داخل الوطن العربي وخارجه .

تعد الشخصية العنصر الأساسي في السيرة الذاتية ، إذ توظف كل العناصر الأخرى لخدمة هذه الشخصية التي لا بد أن يعرضها الكاتب متوخياً أكبر قدر من الصدق والصراحة والموضوعية ، مبتعداً عن التزييف والتمويه (٣٣) .

والسيرة الذاتية تدور غالباً حول شخصية محورية واحدة تدور في فلكها الشخصيات الأخرى التي تظهر مرة أو مرات ثم تختفي .

وكاتب السيرة الذاتية لا يملك الحرية التي يملكها الروائي، ومن هنا تبرز إشكالية تحقق درجة من الوحدة والانسجام اللذين لا بد منهما لأي عمل فني (٣٣) . وغالباً ما يتحدد تطابق الراوي والشخصية المحورية الذي تعرضه السيرة الذاتية من خلال استعمال ضمير المتكلم (٣٤) ، بيد أن هذا الأمر لا يعد قاعدة ثابتة ، إذ قد يتخلى السارد عن ضمير المتكلم ويستخدم ضمير الغائب شأن الدكتور طه حسين في « الأيام » الذي استطاع أن يضع مسافة بينه وبين ذاته (٣٥) .

وتتجلى « الأنا » في السير الذاتية في صور متعددة : فهناك الأنا المراقب الذي يرصد من ضفة حركة العالم على الضفة الأخرى بما تمور به من نشاط وخمود، وانتصار وانكسار. وهناك « الأنا » الهارب المفارق، « الأنا » المستعلي ، « الأنا » الناقد الخارج المتمرد..... (٣٦) ، فأني واحد من هؤلاء كان جبراً ؟

إذا كانت « البئر الأولى » التي سجلت طفولة جبرا، تمثل صراع « الأنا » من أجل

اختراق حاجز الفقر ، فإن « شارع الأميرات » تمثل الزهو والانتصار وتحقيق الكثير من الأمناني التي كانت تراود « الأنا » الجموح واجتياز العقبات التي ما كان يمكن تخطيها لولا العزم الأكيد والتصميم العنيد .

وإذا كانت « البئر الأولى » تمثل البيئة المغلقة التي لم تتجاوز حدود مدينة « بيت لحم » وإحدى ضواحي القدس، فإن « شارع الأميرات » تمثل انطلاق « الأنا » لأفاق رحبة تجاوزت حدود بغداد إلى العديد من عواصم العالم ومدنه الرائعة .

وقد أحسن جبرا صنعا أن ختم « شارع الأميرات » بفهرس للأعلام يحوي أسماء الشخصيات الواردة في سيرته الذاتية، مما يشير الى شبكة العلاقات الواسعة المعقدة التي كانت تربطه بالآخرين، حيث بلغ عدد الشخصيات الواردة في السيرة مايزيد على مائتين وخمسين شخصية إذا ما استثنينا الشخصيات التاريخية التي لم يعاصرها الكاتب كالخديوي إسماعيل وشلمانصر وفرديناند دولاسبس وغيرهم .

ومن الملاحظ أن معظم الشخصيات الواردة في سيرة جبرا شخصيات عراقية بحكم إقامته الطويلة في بغداد .

أما الشخصيات التي كان لها حضور لا يوازيه حضور، ففي مقدمتها تقف « لميعة » التي ورد ذكرها في السيرة أربعاً وثمانين مرة تليها مباشرة شخصية بلند الحيدري قدزمووند ستينورات وغير هؤلاء من الشخصيات التي تمثل معظمها شريحة من الطبقة الأرستقراطية العراقية في الخمسينات ، إضافة إلى شريحة برجوازية تليها في الترتيب ، ثم تأتي شريحة ضيقة تمثل طبقة السفح المسحوقة ولا ترد إلا لمأماً على العكس تماماً من شخصيات « البئر الأولى » التي كانت غالبيتها فقيرة معدمة ، تكافح من أجل الحد الأدنى من العيش الذي يقيم الرمق، كما كانت معظمها فلسطينية؛ ويرد هذا إلى الفرق الشاسع بين بيئة الطفولة وبيئة الكهولة.

وتكشف السيرة الذاتية في « شارع الأميرات » عن جوانب هامة من « أنا » جبرا: فهو شاب عصامي طموح، حقق الانفتاح على العالم والآخرين : ( كانت تلك أول مرة أخرج من بلدي إلى آفاق العالم العريضة مليئاً بالحماس لكل ما يثير في العين والذهن ) ( ٣٧ ) . وله شخصية مستقلة ، لا تدور في فلك الآخرين ، كما يعترف في سيرته أن سلوكه ينسجم مع



واستعاد في « شارع الأميرات » مشهداً من روايته القصيرة « صراخ في ليل طويل »

وعلاقة ذلك المشهد بما وقع بعد ذلك من حادث نسف فندق « سميراميس » (هكذا) الذي جاء المشهد الروائي قريباً جداً من الحدث الواقعي (السيرة ص ١٧٣). ومن أهم ما كشفت عنه السيرة جانب من استراتيجيته في صنع بعض شخصياته الروائية، إذ كان لجبرا صديق فلسطيني اسمه فهد الريماوي، وهو خريج أداب القاهرة وينتمي لحركة دينية سياسية تدعو العرب إلى رفض الحضارة الحديثة والعودة إلى الصحراء منبع قوتهم (السيرة ص ١٨٨).

وجبرا يعترف أنه استوحى من « فهد الريماوي » شخصية هامة بين شخصيات روايته « صيادون في شارع ضيق »: « استوحيت فهد بعد ذلك بمدة قصيرة، وعلى نحو مغاير، في رسم إحدى شخصياتي المهمة في « صيادون في شارع ضيق » (٤٠). ونحن نرجح أن تكون الشخصية التي استوحاها من فهد هي شخصية « توفيق الخلف » التي أجرى العديد من التعديلات عليها، فبدل الاسم والجنسية والمؤهل العلمي، بينما أبقى على جوهر الشخصية القائم على رفض الحاضر بمنجزاته الحضارية، والتشبث بالماضي الغابر (٤١) أما تجليات « الأنا » في علاقاتها مع الآخرين، فتظهر جبرا رجلاً دمثاً وديعاً محبوباً من الجميع، فحجرتة في فندق « السندباد » أو البنسيون أبدأً كانتا تعجان بالأصدقاء والمثقفين (السيرة ص ٩٩)، وفي الكلية كان طلابه وطالباته يتجمعون حوله فتعلق « لميعة » على المشهد قائلة: « أنت يا أستاذ أراك كلما خرجت من محاضرة تعابث الطلاب وتسرح وتمرح معهم، والطالبات أينما تحركت يحاصرنك بإلحاح يبدو أنك تتمتع به » (٤٢). وأغلب الظن أن ملاحظة « لميعة » لم تجانب الصواب، إذ أن جبرا يجب أن يقيم علاقات مع الجنس الآخر، تتجاوز الواحدة إلى مثني وثلاث باعترافه إذ يقول: « أصبت بذلك البلاء الذي عرفته زمناً وأنا طالب في إنجلترا: أحب اثنتين أو أكثر في الوقت نفسه، دون أن أستطيع الفكك من أي منهن، والمصيبة أن ثلاثاً منهن هذه المرة، كل واحدة تعرف أو تشك بأنني موزع على الأقل، بينها وبين واحدة أخرى » (٤٣).

وأشارت السيرة إلى بعض عادات « الأنا » الأخرى كعدم الاكتراث بالهندام، والأكل في الشارع العام. وقد دعتة السيدة الأرستقراطية « كزين رشيد » إلى حفلة عشاء في ناد، فذهب إلى المكان بملابس عادية مخالفاً بذلك قوانين النادي، بيد أن السيدة « كزين »

حاولت أن تغطي على الموقف لكنها علقت قائلة: «أنت ما قصرت في ذلك يوماً ، ولا سيما عندما تشد رباط عنق حول خصرك بدلاً من الحزام! (٤٤)

وهذا التعليق اللاذع يكشف مدى إهمال جبرا في هدامه وعدم اكترائه بتقاليد تلك الطبقة الأرستقراطية التي توثقت علاقته بها . وذكر جبرا في سيرته بعض الأسماء النسائية ممن كان على علاقة بهن ، دون ذكر تفاصيل المغامرة ، ولم يرد في السيرة ما يחדش الحياء ، على عكس ما فعله في « صيادون في شارع ضيق » . وربما يرد ذلك إلى أن الرواية كتبت بالإنجليزية، كما إن الأفعال في الرواية نسبت إلى « جميل فران »، ممل يعفي جبرا من تبعاتها. وفي الوقت الذي يذكر فيه أسماء صديقاته الإنجليزيات دون تردد ، نراه يتحرج من ذكر اسم الطالبة العراقية التي أحبته، وكان بينهما رسائل متبادلة، استردتها بعد زواجه من لميعة، وقدمت له هدية ثمينة دلالة على نبلها ( السيرة ٢٢٩).

وتعكس علاقاته النسائية - باستثناء لميعة - نزعة نرجسية واضحة؛ لأنه يعرض شخصيته مطاردة من المرأة أينما حل. والمرأة في حياته عنصر جوهري ينتشر في سيرته الذاتية من أولها إلى آخرها : فإذا رسم كانت اللوحة : « المرأة التي حلمت أنها البحر » ، وإذا نام حلم انه يمسك بإمرأتين ، وإذا دخل مرقصاً أو نادياً يفتش أول ما يفتش عن المرأة . وكشف الرصد الدقيق أن النساء اللاتي عرفهن جبرا في سيرته يعرضهن في الغالب من الخارج ، فيركز على الملامح الخارجية أكثر من تركيزه على السمات النفسية؛ إذ يصف كزين رشيد قائلاً « امرأة في أواخر الثلاثينات، وتتميز ببشرتها الوردية النضرة، كما تتميز بثقافتها واطلاعها وطلاقة لسانها »، (٤٥) وبلقيس شرارة : « فتاة مودة الخدين بشكل يكاد لا يصدق ، مع صفيرتين من شعر أسود كثيف، تشدهما خلف رأسها تأكيداً على عنقها الطويل ، وكلما خوطبت تحول وردي خديها إلى احمرار رائع » (٤٦) .

والشخصيات النسائية تنتمي في معظمها إلى الطبقة الأرستقراطية ، والرجال كذلك إذا ما استثنينا شخصيات معدودة ، كما أن تلك الشخصيات مثقفة متفتحة تتوجه نحو المستقبل. وجبرا لا ينسى أبداً من لهم فضل عليه كالأستاذ أحمد سامح الخالدي عميد الكلية العربية بالقدس ، واساتذته الذين علموه في فلسطين ، كما أنه يذكر أصدقاء الدراسة ، والآخرين الذين وقفوا معه في محنته ، ومن فتحوا له بيوتهم في بيروت وأمريكا

وربطت جبرا علاقات حميمة بشخصيات بريطانية بعضها في القدس ، وبعضها في بريطانيا ، وأخرى في بغداد بحكم الوظيفة أو الهواية أو العلاقات الاجتماعية ، ويعرضها في إطار إيجابي مشرق في الوقت الذي يهاجم فيه السياسة البريطانية في فلسطين ، على العكس من الطبيب صالح الذي كان يحمل العداء للشخصيات من الحكام أو الشعب البريطاني في رواية « موسم الهجرة إلى الشمال » التي عدها البعض ترجمة ذاتية . ومجمل علاقات جبرا يشير إلى تصالحه مع الشخصيات المحيطة به ، على العكس مما نراه في « الأيام » حيث توترت علاقة طه حسين مع معظم شخصيات السيرة بما في ذلك الوالد والأخ ( ٤٧ ) .

وأغلب الظن أن جبرا أغفل - عامداً - أحداثاً هامة ونزاعات حادة أثر أن يضرب عنها صفحاً ؛ ليقدم صورة زاهية تعرض في إطار يحوي أقل قدر من العيوب ، وتلك ثغرة في « شارع الأميرات » . ويؤيد ما نقول ذلك الموقف الذي احتدم فيه الجدل بينه وبين لميعة قبل الزواج عندما رأت نظراته المصوبة نحو تلميذته ، وهنا يعرض الأمر في إيجاز شديد قائلاً: « وكان لي في تلك الليلة مشهد جنوني مع لميعة وهي تتهمني بأشنع ما يتهم به المحبون » ( ٤٨ ) ، كما لم يوضح موقف أمه من زواجه ، وربما ترك للقارئ حرية الاستنتاج عندما ذكر أنه ترك زوجته في بيروت ، وسافر إلى بيت لحم ليرى أمه وأخوته ( السيرة ص ٢٣١ ) .

ومن الأمور اللافتة في شخصيات « شارع الأميرات » ظاهرة التراكمية في عرض الأسماء التي ازدحمت بها الصفحات ، وكان عرض الكثير منها نوعاً من العرفان بالجميل ، حتى أن حصرها في ذلك الإطار الضيق انعكس سلباً على السيرة ودفع بجبرا إلى الاختصار الشديد . وقد أشار إلى تلك المعضلة في مقدمة « البئر الأولى » قائلاً: « كيف يوفق الكاتب بين سيولة التجربة وشكلانية الكلمة » ؟ ( ٤٩ ) .

ويمكننا القول إن أهم شخصية بعد جبرا في سيرته « لميعة » ، إذ كان لها وجود شبه متصل ، كما أنها الوحيدة التي ورد ذكرها أربعاً وثمانين مرة ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة تتصل بها إلا أحصاها ؛ مما يؤكد أن « شارع الأميرات » في نصفه الثاني كان سيرة حب، وجبرا يؤكد هذا قائلاً: « إنني رجل الحب عنده أكثر العواطف مغالبة في حياته » ( ٥٠ )



ورغم وجود جبرا شبه المتصل في بغداد، إلا أنه لم ينخلع من جنور الفلسطينية، وظل يذكر الشخصيات التي عرفها في بيت لحم والقدس ، ورفاق الطفولة التي لم تعرف الطفولة، و« وردة » قارئة الفنجان التي تنبأت له بمستقبل زاهر ، وشخصيات جبرا التي تدور في فلكه معظمها من الشباب المثقف المندفع المتحمس المتمرد على العادات والتقاليد البالية، وهؤلاء الشباب يجمعهم توجه نحو تجاوز العادي المألوف إلى كل جديد ومدهش.

أعلن جبرا في مقدمة « شارع الأميرات » أن فصول سيرته الذاتية ستكون انتقائية، ومن هنا وضع قائمة بعدد من الأحداث الشخصية التي رأى فيها تجارب دالة ، وعرضها وفق تسلسل زمني معقول ، مع التركيز الشديد على فترة الخمسينات التي شهدت تحولات جذرية مدهشة على كافة الأصعدة، وجبرا في سيرته الذاتية - كما في بعض رواياته - يحرص على أن يعرض الزمن الخارجي في صيغ متنوعة تبعاً لأهمية الحدث .

ومن الملاحظ أنه يثبت تواريخ الأحداث الهامة مفصلة نحو : « أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا يوم ٣ أيلول ١٩٣٩ ، وبذلك بدأت الحرب العالمية الثانية » ( السيرة ص ١١ ) ، وكان هذا الحدث مصيرياً بالنسبة لجبرا وللعالم بأسره ، إذ كان من الممكن أن تُلغى بعثته إلى الخارج وتتلشى أحلامه .

ومن التواريخ الهامة التي ذكرها تفصيلاً زيارته للمدينة الأثرية التاريخية التي شدته إليها بقوة في ٢٢ آذار ١٩٥١ أتيح لي أخيراً أن أرى « نمرود كالح » عاصمة الآشوريين ( السيرة ص ٦٦ ) وهذا يشير إلى مدى عشقه للآثار ، حتى عد زيارته لتلك العاصمة حدثاً هاماً لا ينسى ، وقد يكتفي بذكر الشهر والسنة فحسب : « في شهر نيسان ١٩٤٩ أقيمت حفلة تمثيلية في قاعة الملك فيصل » ( السيرة ص ٦٣ ) ، وتسجيل التاريخ هنا رصد للحركة التمثيلية التي بدأت تنشط في الخمسينات .

وقد يحصر الحدث أحياناً بالفصل والسنة نحو : « دخلت الكلية العربية خريف عام ١٩٣٥ » ( السيرة ص ٧٤ ) .

أما التاريخ الأوحى الذي حرص على تسجيله بالساعة واليوم والشهر والسنة فهو أسعد

يوم في حياته : « في الساعة التاسعة من صباح التاسع من شهر آذار ١٩٥٢ عقد قرانه على لميعة ( السيرة ص ٢٢١ ) .

وهكذا كانت أهم فترة زمنية بالنسبة لجبرا هي مطلع الخمسينات ، حتى أنه أطلق على ١٩٥١ السنة العجائبية لما حملت من أحداث ومفاجآت.

كان الزمن الخارجي في « البئر الأولى » زمن الضنك والكفاح من أجل اختراق حاجز الفقر ، والزمن الذي شهد وفاة الأب والأخت ونكبة عام ١٩٤٨ ، بينما زمن « شارع الأميرات » هو فترة النضج والتفتح ومواجهة العالم الخارجي ، والشهرة والانتشار ، والألق والاستقرار ، والانتصار على العقبات ، والتوجه نحو التجديد في الشعر والرسم والرواية : ( أي فوران ثقافي كان يتصاعد في المدينة يومئذ... اكتسحت الوجودية آنذاك عالم المثقفين بنارها السحري وكان الحضور في المحاضرات من الرجال والنساء ، والغالبية من الشباب مذهلاً بأعداده « (٥١) ، وكان جبرا وسط هذا الزمن في القلب النابض ، فهو يحاضر وينقد ويرسم ويعلم ويوجه في حماس بالغ.

أما المكان فله منزلة خاصة عند جبرا ، ولديه القدرة العجيبة على استقصاء أبعاده ، إذ يضعه بين يديك نابضاً بالحياة ، ويكشف فهرس « شارع الأميرات » موقع المكان من السيرة ، فقد اختار اسم الشارع الذي يسكنه عنواناً للكتاب ، وأعطاه من الاهتمام ما لم يعطه لمكان آخر في سيرته .

ويستفتح سيرته الذاتية بالرحلة الأولى من فلسطين إلى إنجلترا عبر قناة السويس ، وهي رحلة في المكان ، وفصل « سيدة البحيرات » سياحة بين أحضان الطبيعة عند سفح الجبل الشاهق ، وقد لقي « أجاثا كريستي » بين الأطلال والآثار الخالدة التي يعشقها ، كما حفلت السيرة بعدد كبير من الأماكن التي يرتبط بعضها بالماضي كالقدس وبيت لحم ، وهما مكانان في القلب يرتد إليهما بصورة شبه متصلة : « كلما رجعت إلى الدار في بغداد لأكتب كنت كالأرجع في الوقت نفسه من وديان بيت لحم وتلال القدس مليئاً بشذا ورؤى تلك الوديان والتلال « (٥٢) ولا يعني هذا أن المكان في السيرة كان يأخذ الصورة الإيجابية نفسها ، فهناك بعض الأماكن بدت متجهمة لارتباطها بذكريات لا تسر ، كالمدرسة البكرية في القدس التي قضى فيها عاماً ، وأثر ألا يذكر اسمها إذ يقول :



« كنت أعمل في مدرسة ابتدائية كثيبة ( السيرة ص ١١ ) ، كما كان المكان مقبضاً في مدينة بور سعيد : فالمقهى مليء بالدخان ، والوجوه يبدو عليها التعب أو الملل ، والحجرة التي نزل فيها : « كانت رطبة بائسة » ( السيرة ص ١٣ ) .

وما أن يصل إلى إنجلترا ، حتى تتوالى الأماكن الرائعة المدهشة التي أحبها حباً شديداً : فهناك « اكستر » بجمالها وغاباتها الرائعة ( السيرة ص ٢٥ ) ، وهناك مدينة أكسفورد وتمثال الشاعر الرومانسي شلي وهو يقف عارياً ( السيرة ص ٢٩ ) ، ومن ثم مدينة « ستراسفورد » ومنزل شكسبير العظيم : « طفت بدار شكسبير كمن يطوف في مكان مقدس » ( ٥٣ ) .

ويسقط جبرا أحاسيسه على المكان أحياناً ، كما هو الحال في فصل « سيدة البحيرات » إذ يقول : « بلغت بتجوالي سفح « سكاغل بايك » الجبل المشهور القائم على طرف من تلك التلال ، وما يحتضنه من البحيرات الزرق ، وكان مهبطاً آخر من مهابط الوحي لشعراء وكتاب عديدين. كان في ذلك اليوم يبدو كالعابث المرح في صحوة السماء مع فيض من الشمس الحانية دونما حر ؛ لأن ريحاً باردة منعشة تهب بين الحين والآخر حاملة شذا الأعشاب البرية وأزهار أول الربيع » ( ٥٤ ) .

واللوحة هنا حافلة بالصور كالتشبيه « يبدو كالعابث » والاستعارة « والشمس الحانية - تحتضنه من البحيرات » إضافة إلى استخدام الأفعال المضارعة التي تستحضر لنا الماضي نحو : يحتضن - تبدو - تهب ..... الخ ، كما أن الاحتفال بالطبيعة يعكس لمسات رومانسية تناسب الموقف .

ونتحول مع كاتبنا إلى بغداد حيث الأماكن العامة والخاصة : شارع أبي نواس الذي يعج بالحركة : « شارع أبي نواس المسترسل بمحاذاة دجلة ، حيث يتمشى المئات من الناس كل مساء على شاطئ النهر أو يقصدون ( الشايخانات ) المكتظة بروادها ولاعبي « الدومينو » فيها ، وحديث الشعر والقصة والرسم والنحت بيننا لا ينقطع إلا ليتجدد في متوالية لا تعرف النهاية ( ٥٥ ) . إنه المكان الذي يربطه أبدأ بهوموه وهواجسه في تلك المرحلة حيث الأحاديث المتصلة حول الفنون التي يلح عليها جبرا أبدأ ، ويريد أن ينهض بها .

ومن الأماكن العامة الهامة التي ذكرت في السيرة « المقهى البرازيلي » الذي أوحى له ببعض قصائده في مجموعة « تموز في المدينة » ( السيرة هامش ص ١٠٠ ) ، وكذلك المقهى السويسري ، إضافة إلى الأماكن الأثرية التي لا يمل رؤيتها مهما تعددت زيارته لها .

وتضيق دائرة المكان ، فيحدثنا عن حجرته في فندق بغداد ، إذ يصف محتوياتها تفصيلاً : « كانت تطل على حوش الفندق الداخلي ، وهي تكاد لا تتسع لفراش ( ضيق ) وكنبة قديمة وكروسي مستقيم الظهر ومنضدة للكتابة - كنت اشتريتها بدينارين أيام بدني العمل قبل سنة - مع مدفأة من نوع « علاء الدين » أستعملها لصنع الشاي والقهوة . تلك الغرفة التي زينت جدرانها بلوحات زيتية كنت رسمتها في القدس وبيت لحم ، وكانت ملتقى العديد من أنبه أدباء العراق وفنانيه وأساتذته ممن تتراوح أعمارهم بين الثانية والعشرين والثانية والثلاثين ( ٥٦ ) .

إن هذا الوصف المفصل الدقيق للمكان له أبعاده ودلالاته : فالحجرة تطل على « حوش » ولا تطل على فضاء مفتوح أو حديقة أو نهر دجلة ، كما أنها ضيقة وأثاثها فردي متواضع . وجبرا حريص على ذكر بعض التفاصيل الدقيقة كثرمن المنضدة وماركة المدفأة؛ ليعطي المكان خصوصيته المميزة ، بيد أن الأهم من ذلك كله ارتباط المكان بالحركة الأدبية والفنية بالعراق ، والحرص على ذكر اعمار من قامت على أكتافهم حركة التجديد من الشباب النابه المتحمس .

ولابد أن نقف عند سيد الأمكنة في السيرة - إن صح التعبير - ألا وهو المكان الأهم الذي كانت له الصدارة .. إنه « شارع الأميرات » الذي يسكن فيه منذ عام ١٩٦٢ . وجبرا يتتبع تاريخ هذا الشارع ، فيبدأ بأصل التسمية ، ثم يصف تضاريسه ويتحول إلى منزله ، فيصف كل ما يتصل به بما في ذلك المخطط الهندسي للبناء ، والمهندسين اللذين رسما المخطط ، والتعديلات التي أجراها دون أن تكون له خبرة في هندسة البناء سوى ذوقه الشخصي .

لقد تحول المكان في السيرة إلى كائن نابض بالحياة ، يتواصل معه جبرا وكأنه إحدى شخصيات السيرة المحورية : فهو رمز الاستقرار إذ تزوج فيه وكون أسرة ، ومنه انطلق

إلى آفاق العالم الرحيب ، فزار العديد من العواصم والمدن الكبرى ، بعضها للراحة والاستجمام كباريس ، وبعضها كان جسراً كبيراً ، وأخرى كانت للدراسة والعمل مثل ماساشوستس .

ويؤكد جبرا على العلاقة الحميمة التي تربطه بشارع الأميرات فيقول : في ربيع القرن الأخير ، في مرحلة النضج من حياتي ، بعد أن نشأت بيني وبين عدد من الأمكنة علاقة الحب التي ذكرتها ، قامت علاقة حب عميق بيني وبين شارع الأميرات ما زلت أتمتع بنبضها وإحياءاتها ( ٥٧ ) .

ويلقي جبرا الضوء على بعض الأعمال التي ولدت في « شارع الأميرات » كرواية « الغرف الأخرى » وسيرته الذاتية « البئر الأولى » ( السيرة ص ٨٦ ) .

ويرتبط المكان في السيرة الذاتية بجوانب متنوعة من شخصية جبرا : فالأماكن الفلسطينية كبيت لحم والقدس تعكس صورة الماضي البعيد وعلى الأخص فترة الطفولة التي لا تنسى ، وباريس تكشف عن هوسه بالرسم وسعادته برؤية بعض اللوحات تصل فيها متعته حد البكاء ، وبيروت التي كانت بمثابة الجسر يستوقفه فيها البحر الذي يعيشه بأواجه المتلاطمة ، والمنازل المترامية في المدى ، وكأن المشهد لوحة زيتية بديعة ( السيرة ص ١٤٦ ) .

لقد ظلت هذه الأماكن محفورة في ذاكرته ، وعلى رأسها شارع الأميرات ، يعيشها بكل تفاصيلها ، وتتساق وتتناغم مع عناصر السيرة الذاتية الأخرى .

ومن الملاحظ أن القاسم المشترك الأعظم بين الأماكن الواردة في سيرته تتصل كلها بالمدن الكبرى داخل الوطن العربي وخارجه ، ولا عجب ، فالمدينة هي شغله الشاغل في كل إبداعاته ، وهمومها يحملها بين ضلوعه أينما ذهب ، وخاصة بغداد مدينته المفضلة التي كانت الملجأ والمقر ووطن الحبيبة .

إذا كان جبرا قد اختار أسلوب السرد بضمير المتكلم في بعض رواياته ، فمن باب أولى أن يقع على الأسلوب نفسه في رواية سيرته الذاتية .

وتواجه السيرة الذاتية كاتبها بمشكلة بالغة الخصوصية هي أن موضوع كتابه هو ذاته

فإذا عالج هذا الموضوع كأنه شخص آخر يكتب عن نفسه ، فإنه يتجنب بذلك حقيقة السيرة الذاتية الأساسية ، وهي عزلة الأنا في هذا الكون ( ٥٨ ) . ومن الواضح أن «شارع الأميرات» كتبت في التسعينات ؛ لأنها أشارت في جانب منها إلى حرب الخليج (ص ٩٣) ، ناهيك عن سنة الطبع (١٩٩٤) ، وهذا يعني أنه عاد إلى الوراثة نصف قرن أو يزيد لانتقاء الفترة الزمنية المرشحة للسرد ، فكان من الطبيعي أن يسقط الكثير من الأحداث وأن ينسى أحداثاً أخرى أو يعدل فيها . ومن المعلوم أن الاعتماد على الذاكرة في كتابة بعض السير الذاتية له محاذيره ، إذ يكون الكاتب معرضاً للنسيان أو الخط ... يقول الدكتور يحيى عبد الدايم : « ان المترجم يعتمد على عملية التذكر ، وهي ليست أمراً سهلاً ذلواً وليس التذكر عملية آلية يسيرة قوامها التداعي الحر للأفكار ، بل هو عملية شديدة التركيب والتعقيد ؛ لأن عملية التذكر تعني تحويلاً إلى الداخل وتكثيفاً ، وتعني تغلفاً متواصلاً لكل العناصر من حياتنا الماضية . والصدق المحض في الترجمة الذاتية هو مجرد محاولة ، وهو صدق نسبي وليس شيئاً محققاً ؛ لأن هناك عوائق تعترض سبيل المترجم لنفسه » ( ٥٩ ) .

ومن الملاحظ أن أسلوب الاسترجاع سيطر على سيرة جبرا بصورة شبه تامة ، كما أن الفترة الزمنية الأثيرة لديه كانت فترة الطفولة رغم ما ذاق من عذاب وحرمان : « في طفولتي وحداثتي حتى سن الخامسة عشرة ، لم أركب عربة أو سيارة إلا مرات معدودة » ( ٦٠ ) .

ومن الذكريات المؤلمة تلك السيول التي اجتاحت القدس في كانون الثاني ١٩٤٨ وتبعها الاجتياح الصهيوني الجارف في السنة نفسها . وتعود به الذاكرة إلى فترة المراهقة وحكايته مع الرسم وابنة صاحب الدار التي كانوا يقطنونها في القدس ( السيرة ص ٧٥ ) كما يستعيد بعض ذكرياته مع صديقه « ثيو كنعان » عاشق الآثار الذي لقي مصرعه عندما انهارت فوقه كتلة من حجارة مدينة جرش فقتلته ( السيرة ص ١٤٦ ) .

وجماع ذكريات الطفولة والمراهقة حزينة باكية .. إنه الموت الذي يختطف الأخت والوالد في « البئر الأولى » ، ويختطف الزوجة والصديق في « شارع الأميرات » . ومن أساليب السرد التي وظفها جبرا في سيرته « الحلم » الذي تكرر في أكثر من



موضع ، إذ كان يرى نفسه بصحبة امرأتين الأولى عارية والأخرى لابسة ، ومن حولهم أناس مزدحمون لا يرى منهم إلا الوجوه التي ارتسمت عليها علامات الدهشة ، بينما جبرا غير مبال ( السيرة ص ١١٩ ) . ويبدو أن الحلم تعبير عن حيرته في الاختيار بين لميعة وتلميذته التي لم يذكر اسمها ( السيرة ص ١٥٧ ) .

ولم يحسم هذا الأمر إلا في نهاية السيرة عندما تزوج ، وما عاد يرى ذلك الحلم . وعرضت السيرة فحوى مجموعة من الرسائل المتبادلة بين جبرا وصديقاته الموزعات في أنحاء شتى من العالم ، إذ وصلته ثلاث رسائل إحداها من غلاديس البريطانية اختزلها في سطور ( السيرة ص ٣٦ ) .

ويكتفي بالكشف عن معلومات محدودة للغاية عندما يذكر رسائل لميعة التي كانت تصله تباعاً أثناء وجوده في باريس ( السيرة ص ١٥٦ ) .

وفي الوقت الذي يدعو فيه جبرا المبدعين إلى نشر رسائلهم ومذكراتهم ، نظراً لأهميتها البالغة ( ٦١ ) ، نراه في « شارع الأميرات » يقف عند تلخيص الرسائل . وقد تبدى حرجه الشديد يوم وصل إلى مطار « قلنديا » بضواحي القدس ، وامتدت يد مفتش الجمارك فتناول إحدى الرسائل : ( جمع الضابط الرسائل في كومة كبيرة ، وبأن كأنه ينوي مصادرتها أو حجزها للإطلاع على تفاصيلها ، ولكنه غير رأيه وأخرج رسالتين أو ثلاثاً من ظروفها ، وبعضها بالإنجليزية ، وقرأ ما استطاع أن يقرأ وأنا شديد الحرج لما سيقراً من بوح وعتاب ومشاكسة ( ٦٢ ) .

إن هذا الحرج الذي اعترى جبرا في المطار ، يؤكد أنه حجب عن القراء الكثير ، وأثبت ما يريد ، بحيث تخرج السيرة على الملأ في إطار يرسم أبعاده كما يهوى . ورغم أن « شارع الأميرات » حافل بعدد هائل من الشخصيات ، إلا أن جبرا اقتصد في الحوار بشكل ملحوظ ، وعرضه قصيراً مكثفاً موظفاً للكشف عن أعماق الشخصيات المتحاورة ، شأن الحوار الذي دار بين جبرا ولميعة قبل سفره إلى باريس حيث سيطر على الحوار نفحات رومانسية حاملة ( السيرة ص ١٤٥ ) وفي حوار الكاتب مع الفتاة « جين هاريسون » نحس عبث جبرا وفتاته ، إذ حاول كل منهما أن ينصب شباكه للإيقاع بالطرف الآخر ( السيرة ص ٣٤ ، ٣٥ ) .

ولا بأس من عرض الحوار الذي دار بين لميعة وأمها التي سألت ابنتها يوم زار جبرا بيتهم لأول مرة :

من هذا الرجل ؟ ( مشيرة إليّ )

فضحكت لميعة وأخبرتها أنني أحد زملائها كبقية الضيوف

فقلت لها : لماذا لعب قلبي عند رؤيته ؟

ففهمت لميعة قصدها ، وأجابت مستمرة في ضحكها : هذا رجل غريب ، ماما ، فلسطيني لا تخافي ، ومسيحي أيضا ، هدئي من روعك ! ( ٦٣ ) .

وواضح أن الحوار كشف عن مخاوف الأم عندما رأتها فتوجست منه خيفة ، وهنا جاء دور لميعة في إفهام أمها بأن مخاوفها لا أساس لها ، لأن عقبات تحول دون أي ارتباط رسمي لأنه : فلسطيني ومسيحي .

ولغة الحوار عند جبرا ذات مستويات متعددة : فإذا كانت الشخصية متعلمة أو مثقفة أو أجنبية ، أجرى على لسانها الفصحى ، وإذا كانت من الطبقة الشعبية التي لاحظ لها من التعليم ، لجأ إلى العامية ، شأن الحوار الذي دار بين جبرا وزميليه من جهة ، وبين خفر السواحل المصريين من جهة أخرى ( السيرة ص ١٨ ، ٢٠ ) . واستخدم لهجة « بيت لحم » في الحوار الذي جرى مع « وردة » قارئة الفنجان ( السيرة ص ٢٣٢ ) ، كما استخدم اللهجة العراقية البغدادية في مواضع محدودة .

وجبرا متمكن من ناصية اللغة ، عارف بأسرارها ، متمرس في الحوار الذي عشقه منذ الطفولة إذ يقول : « قبل أن أبلغ التاسعة أو العاشرة ، كنت أشاهد المسرحيات بكثرة . فدخلت فكرة الحوار وفكرة الصراع في أذهاننا ونحن في هذه السن المبكرة ( ٦٤ ) .

وقد عرض جبرا ألوانا من الصراع بين « الأنا » والآخرين ، وحسمه بصورة واقعية ، فعندما عارض أهله سفره خوفاً على حياته ، حسم الأمر عندما صمم على السفر ، وعندما وقع في حيرة بين أن يختار بين لميعة وتلميذته جاء الحسم لصالح لميعة .

وتتجلى اللمسات الشعرية في لغته حين تتوهج العاطفة أو يصف الطبيعة ، بيد أن المواضيع التي ذكرت فيها هي الأكثر تالقاً من ناحية اللغة : لقد ملأت عيني كما لو أن سيدات لوحات عصر النهضة الإيطالية وإلهاتها ، لو أن نساء رسامي العالم كله ،



الطائرات الخصلات في الهواء ، العابثات بين الأغصان ، الراكضات حول أشجار الورد .. تجسدن أخيراً في امرأة واحدة ، واسعة العينين السوداوين ، مع عقصتين من شعرها القصير تعبثان على جبينها، منحوتة الشفتين المرجانيتين ، وأسنانها تغطي ضحكته وهج اللآليء التي تغنى بها ألف شاعر عربي فملأت عيني ، وملأت صدري ، وملأت كياني كله بفتنة لم أكن مهياً لها (٦٥) .

واللوحة التي بين أيدينا تعكس بوضوح - إضافة إلى العاطفة الصادقة والخيال المجنح - ثقافة جبرا الفنية التي وظفها في عرض اللوحة : فهناك إشارة إلى الرسم في عصر النهضة وإلى النحت والشعر ، كما أن تكرار الفعل المضارع « تملأ » يوحي بالاستمرارية ناهيك عن الحركة التي تضج بها اللوحة : طائرات - عابثات - راكضات . وكثيراً ما يقسم جبرا العبارات تقسيماً داخلياً له وقع محبب نحو قوله : كان الحب عاصفاً كالريح وجارفاً كالسيل ، فضاؤه الحقول الخضراء ، والأشجار البواسق ، يضج بالجد ، كما يضج بالروح (٦٦) .

ونراه يرسم بالكلمة نهر دجلة عند الغروب كأننا نراه فيقول : « نهر دجلة يلتهب بانعكاسات شمس المغيب ، الغيوم تتناوشها بالأحمر والذهبي والبنفسجي ، وتجعل من فوضى ألوانها مهرجاناً صاحباً لا يتكرر كثيراً في أمسيات الربيع » (٦٧) .

وواضح أن جبرا اتخذ موقفاً معتدلاً من قضية العامية والفصحى : فأجرى العامية في مواضع محدودة للغاية على ألسنة ست شخصيات من طبقة السفح ، عندما كان الموقف يقتضي استعماله لفظة عامية لم يجد لها بديلاً ، كما أن لفته خالية من الأخطاء النحوية والإملائية والتعبيرية تعكس شخصية لها ثقافة موسوعية .

نرى لزماً علينا أن نتوقف عند الشكل الفني « شارع الأميرات » ، حيث أشار الكاتب في المقدمة أن رئيس تحرير مجلة رائجة عرض عليه أن يكتب له عدداً من « المقالات » يتحدث في كل منها عن تجربة من تجارب العمر ( السيرة ص ٧ ) ، بيد أن النظرة الفاحصة تثبت أن جبرا لم يتوقف عند قالب المقالة بل تجاوزه بحيث استوعبت السيرة العديد من الصيغ والأجناس الأدبية يمكن أن نطلق عليه النص المفتوح . وفي الوقت الذي لجأ فيه جبرا إلى نظام الترقيم في عرض فصول « البئر الأولى » ،

نراه في « شارع الأميرات » يخرج عن هذه الطريقة بوضع عناوين للفصول الستة ، ويجعل الفصل الأخير في اثني عشر مقطعاً ؛ مما يدل على اضطراب واضح في تنسيق المحتويات . وقد انعكس هذا سلباً على السيرة فجاءت مخلطة ، على عكس « البئر الأولى » التي جاءت أكثر تماسكاً وترابطاً ؛ لأنها لم تخضع لانتقائية شارع الأميرات ، بل تناولت فترة واحدة متصلة .

وجمعت « شارع الأميرات » بين قالب المقالة الوصفية والمقالة القصصية ، إضافة إلى الصورة الروائية التي تجلت في اللوحات الرومانسية البديعة التي انتشرت في السيرة كما هو الحال في الفصل الثالث ، أو عندما يسترجع ذكرى لميعة .

ويرتكز في الفصل الرابع على خاصة تميز القصة القصيرة التقليدية هي « لحظة التنوير » ، إذ يفاجأ القارئ في نهاية الفصل أن السيدة « مالوان » ما هي إلا الكاتبة المعروفة « أجاثا كريستي » التي شهرت برواياتها البوليسية التي تبث فيها عنصر التشويق والإثارة لشد انتباه القارئ .

ووظف جبرا فن « الحكاية » الذي أغرم به من خلال تعلقه بالأسطورة ، وألف ليلة وليلة التي يتضح أثرها في « البئر الأولى » أضعاف ما نراه في « شارع الأميرات » ربما لأن فترة الطفولة توائمتها تلك الحكايات البديعة .

وجبرا يبحث أبداً عن كل مدهش يبث في سيرته ، وانطلاقاً من عشقه لفن الحكاية قام بترجمة « حكايات من لافونتين » وأهدى الكتاب لحفيده ( ٦٨ ) .

ويستعيد من الذاكرة اعترافاً لزوجته عندما قالت له ذات يوم : « أتدري ؟ أكتشف الآن سرّاً يجب أن أكتشفه لك . إن الذي اجتذبنني إليك لم يكن فقط علمك وفنك وأدبك وحيويتك - وكلها على عيني ورأسي - بل براعتك في رواية أي شيء ، قصة ، حدث ، نكتة ، بالعربية ، والإنجليزية ..... أن تجعل كل صغيرة وكبيرة ، حقيقة أو مختلفة ، مهمة ومثيرة ..... إنك تجعل الحياة كلها تبدو مهمة ومثيرة أي موهم رائع تزوجت ! » ( ٦٩ ) .

وهذا الاعتراف يؤكد قدرة جبرا على الإيهام ، إذ يستطيع أن يجعل من العادي مدهشاً ، كما أنه ماهر في إلقاء النكتة التي يعشقها ويبثها في أطوار سيرته الذاتية .

وقد يجنح جبرا إلى المبالغة في إيراد بعض الحكايات التي يدعي أنها على القارئ

تصديقها نحو قوله عن زوجته : « ورثت والدتها كميات من المجوهرات أعطتها للميعة أيام دراستها في دار المعلمين . وبدلاً من أن تتزين لميعة بها ، راحت تبيعها قطعة قطعة ، وتشتري بأثمانها ألواح الشوكولاته وكيلوغرامات الفستق، وهكذا أتت على ذهبها كله » (٧٠) . ولم تقف السيرة عند قالب المقالة والحكاية ، بل نرى الكاتب يورد قصيدتين أولاهما غزلية موجهة إلى تلميذته « أ » يستعيد فيها ذكريات عطرة . وأخرى بكائية حزينة يعبر فيها عن لوعته وعذاباته بعد رحيل لميعة إلى العالم الآخر ، إضافة إلى لوحة مرسومة بريشته ، وتعود إلى ١٩٥٢ ( السيرة ص ٩٢ ، ٩٥ ، ١٠٢ ) .

وهذا الشكل المفتوح الذي اتخذته السيرة يشي برغبة جبرا في التمرد على تقاليد نقاء النوع الأدبي ، وقدرته على استيعاب صيغ شتى يصبها جميعاً في بوتقة فكره المفتوح وخياله الخصب فيستحيل شكلاً بديعاً رائعاً مثيراً بعيداً عن أي تقليد .

## حصاد البحث

نرى لزوماً علينا بعد أن قمنا بالتحليل الفني لسيرة جبرا الذاتية في « شارع الأميرات » أن نسجل أهم نتائج هذا البحث ونوجزها فيما يلي :

- السيرة الذاتية من أكثر الأجناس استعصاء على التعريف ؛ لأن حدود المصطلح أكثر مرونة وأقل وضوحاً من الأجناس الأدبية الأخرى كالشعر أو المسرحية .

- اتسمت السير الذاتية في الأدب العربي القديم بقلّة التركيز على « الأنا » إذا ما قيس ذلك بكثافة الجانب الموضوعي المهيمن . وسير ابن خلدون وأبي حيان التوحيدي والغزالي خير شاهد على ذلك .

- تطور فن السير الذاتية في الأدب العربي الحديث بشكل بطيء ، إذا ما قيس بما لحق الأجناس الأخرى من تطور مدهش كالرواية والقصة القصيرة . وربما يتصل هذا البطء بطبيعة الظروف والبيئة التي تختلف في العالم العربي عنها في العالم الغربي والأيام لطف حسين « وسبعون » لمخائيل نعيمة يشيران إلى مثل هذا التطور .

- تعد السيرة في « شارع الأميرات » امتداداً للسيرة في « البئر الأولى » مع فروق ظاهرة بين الكتابين شكلاً ومضموناً .



- تمثل « البئر الأولى » مرحلة الطفولة وبدايات المراهقة ، وكانت « الأنا » فيها محاصرة بالفقر والعوز ، كما كان عالمها محدوداً للغاية ، بينما تمثل السيرة في « شارع الأميرات » مرحلة النضج والانعتاق من الفقر ، والتحرر والانفتاح على العالم الخارجي وتحقيق الذات المتعطشة للمعرفة والتجربة .

- كان « جبرا في « البئر الأولى » محاطاً بكل ما هو فلسطيني ، بينما غلب الطابع البغدادي العراقي على « شارع الأميرات » بحكم الإقامة الطويلة والعلاقات المتشابكة مع عدد هائل من الشخصيات العراقية وغير العراقية .

- ركز جبرا في « شارع الأميرات » على قضايا ذاتية تمثلت في هموم « الأنا » وطموحاتها ، وكشفت عن جوانب شخصية كعادته في الماكل والمشرى والملبس إضافة إلى بعض قضايا الإبداعية ، كما عرض في السيرة لمشكلات قومية تتصل بالاستعمار والتحرير والقضية الفلسطينية ، وعرج على العقبات التي تعترض التوزيع والنشر والتواصل بين أقطار الوطن العربي ، ولم يغفل بعض القضايا الإنسانية كالحرب وويلاتها ، والموت الذي لا يقهر ، والآثار الخالدة التي هي ملك للبشرية ، بيد أن البعد السياسي كان هو الأضعف في سيرته انطلاقاً من قناعاته الخاصة بأن الإنخراط في السياسة على امتداد الوطن العربي مغامرة غير مأمونة العواقب .

- كانت أخطر الأحداث في السيرة على المستوى العالمي قيام الحرب العالمية الثانية ، وعلى المستوى العربي قيام الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، وحرب الخليج التي أشار إليها سريعاً .

أما أهم حدث في حياة جبرا فكان استقراره في بغداد إثر حرب عام ١٩٤٨ ، وزواجه من ليعة التي كان لها حصة الأسد من السيرة .

- حشد جبرا في « شارع الأميرات » ما يقرب من مائتين وثمان وستين شخصية معظمها عراقية وإنجليزية ، يليها في الكثافة العديدة شخصيات فلسطينية وسورية ؛ مما جعل السيرة مضغوطة، ومن هنا انتشرت فيها ظاهرة التراكمية في الأسماء التي ضاقت بها السيرة ، فاقصر في كثير من الأحيان على ذكرها فحسب .

ومن الملاحظ أن الشخصيات العراقية تنتمي في الغالب للطبقة الأرستقراطية المتنفذة ، كما تصدرت السيرة نخبة من الشباب المثقف المتحمس المندفع نحو التغيير والحدثة .

- كانت « لميعة » أهم شخصية نسائية في حياة جبرا ، وبلند الحيدري أهم شخصية بين الرجال ودرزmond ستيوارت أهم شخصية أجنبية . وفيما عدا ذلك ، فقد وزع جبرا اهتمامه على الشخصيات التي تدور في فلكه بأقدار متوازنة ، وإن لم تكن غير متساوية .

- يظهر جبرا إعجابه « بالأنثى » من خلال عرض سلسلة من شهادات الآخرين كالت لها المديح والثناء ؛ مما يؤكد نزعه النرجسية التي تجلت كذلك في سعي الجنس الآخر إليه في مواقف عدة .

- عمد جبرا إلى إلقاء الضوء على الجانب المضيء من حياة « الأنا » وأبقى نزاعاته مع الآخرين في الظل ؛ مما يجعل صورة « الأنا » في سيرته مبتورة .

- كان تركيزه على مطلع الخمسينات ؛ لأنها فترة تحول جذري في حياته الشخصية إذ تزوج لميعة ، كما شهدت تلك الفترة حركة نشطة على الصعيد الأدبي والثقافي والفني ، تجاوزت حدود العراق إلى أجزاء أخرى من الوطن العربي كبيروت والقاهرة ، وكانت تبشر بالانطلاق نحو الحداثة .

- حفلت سيرة جبرا بالعديد من الأماكن ، بعضها يرتبط بالماضي كالقدس وبيت لحم وله حضور شبه متصل في السيرة ، وبعضها يتصل بأيام الدراسة في بريطانيا مثل ستانفورد واكسفورد وعلاقة تلك الأماكن بالعمالة من ساكنيها كشكسبير وشلي وجون كيتس ، وأكثرها في بغداد شملت حجرته الخاصة في فندق بغداد وأماكن عامة أثيرة لديه كشارع أبي نواس ونهر دجلة ومقهى البرازيل ، وأوضح علاقة بعض تلك الامكنة بجانب من إبداعه ، إلا أن بيته في شارع الأميرات كانت له الصدارة في النصف الثاني من السيرة ، بحيث استحال شخصية محورية في سيرته الذاتية ،

- ألقى جبرا الضوء على العلاقة الحميمة بين حياته الخاصة وبعض شخصياته الروائية والقصصية ، كما أشار إلى بعض تقنيات بناء الشخصية في أكثر من عمل روائي مما يفيد الباحث كثيراً ، كما كشفت بعض هوامش السيرة عن خفايا كانت معظمها مجهولة.

- استوعبت « شارع الأميرات » - كشكل فني - العديد من الصيغ والأجناس الأدبية كالمقالة والحكاية والسرد الروائي والقصيدة واللوحة ؛ مما يدل على أن جبرا عمد إلى النص المفتوح لأنه أراد التمرد على القوالب التقليدية ، كما أن هذا الشكل يخدم غاياته في تقديم سيرته الذاتية .

- لزم في سرده اللغة الفصحى التي كانت تتوهج فتلامس الشعر في المواقف التي تتوتر فيها المشاعر ، وفيما عدا ذلك فلفته عادية تتسم بالبساطة والوضوح وعدم التقعر .  
والأمر مختلف في لغة الحوار التي راوح فيها بين الفصحى والعامية ، حيث يجري الأولى على ألسنة الشخصيات المثقفة والأجنبية ، ويجري الثانية على ألسنة شخصيات طبقة السفح ، وكان الحوار كاشفاً عن جوانب هامة من أعماق جبرا والشخصيات الأخرى المتحاورة .



## الهوامش

- ١ - جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ١٩٧٩ ص ١٠١ .
- ٢ - جبرا إبراهيم جبرا - البئر الأولى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ١٩٨٦ ص ٨ .
- ٣ - جبرا إبراهيم جبرا - شارع الأميرات - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - ١٩٩٤ ص ٨ .
- ٤ - لمزيد من التفصيل : انظر : د. خليل الشيخ - سيرة جبرا إبراهيم جبرا وتجلياتها في أعماله الروائية والقصصية . مجلة أبحاث اليرموك - جامعة اليرموك - إربد العدد الأول ١٩٨٩ ص ٧١ .
- ٥ - جبرا إبراهيم جبرا - شارع الأميرات مصدر سابق ص ١٧ .
- ٦ - جبرا إبراهيم جبرا المصدر السابق - ص ٣٣ .
- ٧ - انظر : علي الفزاع - جبرا إبراهيم جبرا - دراسة في فنه القصصي - دار المهدي - عمان - ١٩٨٥ ص ١٩ .
- ٨ - انظر : علي الفزاع - المرجع السابق نفسه ص ١١ .
- ٩ - شارع الأميرات ص ٨٣ .
- ١٠ - شارع الأميرات ص ١٤٧ .
- ١١ - جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - مصدر سابق ص ١٣٦ .
- وانظر : القضايا السياسية في شارع الأميرات - الصفحات ٦٠ - ١٦١ - ٢٠٢ - ٢١٣
- ١٢ - شارع الأميرات ص ١١ .
- ١٣ ، ١٤ - شارع الأميرات ص ١١١ ، ص ١٤٧ .
- ١٥ - جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - مرجع سابق ص ١٣٦ .
- ١٦ ، ١٧ - شارع الأميرات ص ٢٢٠ ص ١٩ .
- ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ - شارع الأميرات ص ١١١ ، ص ١١٢ ، ص ٢٩ .
- ٢١ - شارع الأميرات ص ١١٣ .

- وانظر الصفحات ٩٨، ٩٩، ١١٥ .
- ٢٢ - جبرا إبراهيم جبرا - الحرية والطوفان - المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت - ١٩٧٩ ص ١٢٤ .
- ٢٣ - وردت لفظة « مدهش » في الصفحات ٢٧، ٤٥، ٤٧ وغيرها ، « ومذهل » في الصفحات ٦٩، ١٠٢، ٢٢٩ وغيرها .
- ٢٤، ٢٥ - جبرا إبراهيم جبرا - شارع الأميرات ص ١٢، ٢٠٣ .
- ٢٦ - جبرا إبراهيم جبرا - صيادون في شارع ضيق - دار الآداب - بيروت ١٩٧٤ ص ١٩ .
- ٢٧، ٢٨، ٢٩ - شارع الأميرات ص ٣١، ١٠٢، ص ٢٢٧ .
- ٣٠، ٣١ - شارع الأميرات ص ٢٢٥، ص ١٥٣ .
- ٣٢ - انظر د. يحيى عبد الدايم - الترجمة الذاتية - دار إحياء التراث العربي بيروت - ١٩٧٤ - ص ٧ .
- ٣٣ - انظر : أبو المعاطي أبو النجا - تعليق على البئر الأولى - مجلة العربي - وزارة الإعلام - الكويت - مارس ١٩٨٨ - ص ٣٧ .
- ٣٤ - انظر : فيليب لوجون - الترجمة الذاتية - ترجمة عمر حلي - المركز الثقافي العربي بيروت - ١٩٧٤ - ص ٢٥ .
- ٣٥ - انظر د. إحسان عباس - فن السيرة - دار الثقافة - بيروت - ١٩٥٦ - ص ١٤٢ وما بعدها وانظر د. يحيى عبد الدايم الترجمة الذاتية مرجع سابق ص ٤٢١ .
- ٣٦ - د. عبد المنعم تليمة - ذاته في نوات الآخرين - مجلة إبداع - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة - يونيو ١٩٩٥ - ص ٨ .
- ٣٧، ٣٨ - جبرا إبراهيم جبرا شارع الأميرات ص ١١، ص ٢٠٨ .
- ٣٩ - نقلاً عن : عبد الجبار المطلبي - في النقد القصصي - دار الرشيد / بغداد ١٩٨٠ ص ١٢٣ .
- ٤٠ - جبرا إبراهيم جبرا - شارع الأميرات ص ٨٨ .
- ٤١ - انظر : جبرا إبراهيم جبرا صيادون في شارع ضيق - مرجع سابق - ص ٩٥ وما

بعدها .

- ٤٢ - جبرا إبراهيم جبرا - شارع الأميرات ص ١٠٩ .
- ٤٣ - انظر شارع الأميرات ص ١٥٧ ، ١٦٣ .
- ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ - شارع الأميرات ص ١٣٩ ، ص ١٣٨ ، ١٧١ .
- ٤٧ - انظر : د . يحيى عبدالدايم الترجمة الذاتية مرجع سابق ص ٣٨٥ وما بعدها .  
وانظر : د . شوقي ضيف الترجمة الشخصية - مرجع سابق - ص ١١٣ وما بعدها .
- ٤٨ - شارع الأميرات ص ١٢٠ .
- ٤٩ - جبرا إبراهيم جبرا - البئر الأولى المقدمة ص ١٣ .
- ٥٠ - جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - مرجع سابق ص ١١٧ .
- ٥١ - شارع الأميرات ص ١١٤ .
- وانظر د . شكري محمد عياد الرواية العربية المعاصرة وأزمة الضمير العربي مجلة عالم الفكر - وزارة الإعلام - الكويت . العدد الثالث - ١٩٧٢ ص ٢٠ .
- ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ - شارع الأميرات ص ٨٧ ، ص ٣٢١ ، ص ٤٤ ، ص ١٢٣ .
- ٥٦ ، ٥٧ - شارع الأميرات ص ٩٩ ، ص ٧٧ .
- وانظر وصف المكان في الصفحات ١٢ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٤٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٨٢ ، ٢٤٤ .
- ٥٨ - انظر : صبري حافظ - البنية النصية - مجلة فصول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - العدد الثاني ١٩٩٢ ص ١٠٦ .
- ٥٩ - د . يحيى عبدالدايم - الترجمة الذاتية - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٩٧٤ ص ٥ ، ص ٦ .
- ٦٠ - شارع الأميرات ص ٧٣ .
- ٦١ - جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - مرجع سابق ص ١٠٢ .
- ٦٢ ، ٦٣ - شارع الأميرات - ص ١٦٢ ، ص ١١٨ .
- ٦٤ - جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - مرجع سابق - ص ١١٩ .
- ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ - شارع الأميرات ص ١٠٥ ، ص ٢٧ ، ص ١٣ . وانظر الصفحات ١٥ ،

٥١، ٤٢، ٢٦ .

٦٨ - حكايات لافونتين - ترجمة جبرا إبراهيم جبرا - دار ثقافة الطفل - بغداد -

١٩٨٧ .

وانظر: جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - مرجع سابق ص ٦٨ .

٦٩ ، ٧٠ - شارع الأميرات ص ٢٢٤ ، ٢٢٢ .

وانظر: جبرا إبراهيم جبرا - ينابيع الرؤيا - مرجع سابق - ص ٦٨ .



